الفصل الأول
نظرة مختلفة إلى الواقع

الصـــــــــــديق
غوراتسيو
يوجـد الكثيـر فـي
هذه الدنيا،
لـــم يخطـــر فـــي
أحلام حكمائنا.

شكسبير

لكي نستخدم العقل، لا يتحتم علينا معرفة قوانين الفيزياء، أو فهم جوهر الواقع تماماً. كما إنه ليس من الضروري معرفة تركيب غرفة الاحتراق، أو نظام الاشتعال فيها، حتى نقود السيارة، فالقليلون، فقط، يفهمون بالسيارات، إلا أن هذا لا يعيق الأكثرية في قيادة السيارة. وهكذا بالضبط تجري الأمور مع قوى العقل: فيمكن لأي شخص أن يملك أساسيات هذا الجهاز واستخدامها بنجاح في التطبيق العملي بالحياة اليومية.

سوف نبدأ من دراسة جوهر الواقع، ولاسيما الاكتشافات المذهلة التي جرت في مجالات العلم في السنوات العشرين الأخيرة، والتي تساعد على الفهم الأفضل لكيفية قيام العقل بتكوين ماهيته الذاتية. فهي تفسر لماذا الخيال أو التصور العقلي هو العملية الإبداعية التي تساعد الإنسان على مراقبة وتوجيه تيار الطاقة القادر على لصق الأشياء، وتحويل السائل إلى بخار أو التسبب في الانتفاخ ونمو البذور.

وبعد أن تدرك حقيقة تيارات الطاقة هذه، فإنك تصل إلى فهم جوهر العقل، وترى أن الوحي، والصلاة، والبداهة لا تعتبر شيئاً خارقاً، بل هي متعلقة بالقوانين، التي يمكن أن تكون مفتوحة، أو مستخدمة بإرادة الإنسان، وكما كل ما هو معروف

من قبل الإنسان في الكون، فقوى العقل تدار بالقوانين، التي لو تحررت من المصطلحات العلمية، وقدمت بشكل سهل المنال، لأمكن كل واحد أن يفهمها.

واسمح لي، قارئي العزيز، أن أعرفك إلى عالم هذه الاكتشافات المشوق. فالفيزياء العصرية تنظر إلى الكون على أنه شبكة غير محدودة، ولا تتجزأ، من النشاطات الديناميكية وهي لا تعيش فقط، بل تتغير دائماً وتؤثر مكوناتها في بعضها بعضاً. وعلى المستوى الأولي يقدم الكون نفسه كاملاً، غير مقسم، ومثل ذلك بحر الطاقة الذي لا قعر له، المخترق لكل جزء وكل نشاط - فهي كلها وحدة متكاملة.

وبكلمة واحدة، يؤكد العلماء اليوم، أنه، ومنذ آلاف السنين، يقول الصوفيون المستبصرون والمؤمنون بالغيب: نحن لسنا عناصر مقسمة، بل جزءاً من كل واحد عملاق.

عندما يقتلعون العشب الأخضر
يرتجف الكون كله.
مقولة

والفيزياء المعاصرة غيّرت نظرتنا إلى العالم المادي. فلا أحد اليوم يؤكد أن الذات تتشكل من «مادة» أساسية ما: فهم يعتبرونها حزماً صغيرةً من الطاقة بإمكانها القيام بتحولات مفاجئة، وكما تسمى «قفزات كمية»، ففي بعض الحالات هي تؤثر كوحدة كاملة؛ وفي حالات أخرى، كموجات طاقة نظيفة. والحقيقة تتدفق، فلا شيء دائم، والكل يبدو جزءاً من نموذج يقع في حركة غير متقطعة. وحتى الصخرة، هي نتيجة «رقص» الطاقة المحتدم. فالكون حي وديناميكي، ونحن أنفسنا موجودون بداخله، ونشكل قسماً منه حياً وديناميكياً.

الكون هو طيف عملاق

في العام 1947، قام دينيس هاربر، الحائز جائزة نوبل تقديراً لاكتشافاته، بوضع النظريات التي تفترض بداية اكتشاف تقنية إنتاج صورة ثلاثية الأبعاد للأثر. فالطيف (المادة الحساسة للضوء) يقدم نفسه كظاهرة، محتواة (بالكامل) في

كل واحدة من مكوناتها. مثلاً: نجمة البحر تحتوي أثراً ثلاثي الأبعاد محدداً، وإذا قطعنا أي جزء منها، فهي تنمو مجدداً، وأكثر من ذلك، فمن الجزء المقطوع يمكن أن تنمو نجمة بحر جديدة: فشيفرتها الوراثية موجودة في كل جزء منها.

قبل عدة سنوات، شاهدت في أحد معارض «المواد الحساسة للضوء»، صوراً مصنوعة مع استخدام أثر تقنية إنتاج الصورة ثلاثية الأبعاد وفي واحدة من تلك الصور تم تجسيد امرأة واقفة. وعند النظر إلى المرأة المجسمة من اليمين، فإنك تشاهد تجسيماً آخر: امرأة تدخن سيجارة. ولو نظرت من اليسار، فاللوحة تتغير مجدداً: امرأة لعوب وقد أظهرت فخذها من الأمام. ولو أن هذه اللوحة سقطت فجأة، وتكسرت متحولة إلى شظايا كثيرة. لكان كل جزء منها قد احتوى ليس ما تتوقع رؤيته، - قطعة من حذاء أو ثوب المرأة، أو جزءاً من وجهها، - بل تجسيداً كاملاً للمرأة - ولو أنك نظرت إلى أي من الشظايا، ومن جهات مختلفة، فإنك، من جديد، سوف تشاهد كيف يتغير ذلك التجسيد: المرأة تدخن السيجارة أحياناً، وأحياناً أخرى تبدو في ذلك الموقف المغري: فكل شظية تحتوي في داخلها لوحة كاملة.

وفي هذه الآونة، يتوصلون إلى استنتاج الواقع في حقيقته هو أيضاً طيف (مادة حساسة للضوء) وعمل العقل، يقوم على التأثير التقني لإنتاج صورة ثلاثية الأبعاد. وعمليات تفكيرنا تمكن الكثير مما هو مشترك مع المستوى الأدنى لتطور الكون، وتتألف من تلك «المادة» كذلك. فالعقل هو طيف يعكس صورة الكون ثلاثية الأبعاد.

ويعتبر كل من الفيزيائي في جامعة لندن ديفيد بوم، تلميذ اينشتاين، وأحد إشراقات الفيزياء الكمية العالمية، والمتخصص العصبي - الفيزيائي في جامعة ستانفورد كارل برايبرام، واضعي هذه النظرية غير العادية. وقد أرادت المصادفة أن يتم الاثنان اكتشافهما بشكل مستقل كل منهما عن الآخر، عاملين في مجالات علمية مختلفة. وقد وصل بوم إلى استنتاج حول طبيعة الكون ثلاثية الأبعاد بعد عدة سنوات من المحاولات الفاشلة لتفسير كل عمليات وظواهر الفيزياء الكمية بمساعدة النظريات التقليدية.

أما برايبرام فقد عمل على دراسة العقل البشري، واقتنع كذلك بعدم قدرة النظريات التقليدية على تفسير أسراره الكثيرة. وبالنسبة للعالمين، فقد امتلأ أنموذج الصورة ثلاثية الأبعاد بالمعنى، وكان رداً على أسئلة لم تجد لنفسها حلولاً من قبل. وعمم العالمان اكتشافاتهما مع بداية سبعينيات القرن الماضي. وقد وجدت اكتشافاتهما صدى إيجابياً في الوسط العلمي، إلا أنها، وللأسف، لم تكتسب شهرة واسعة خارجه. فالبعض تعامل معها بالتشكيك (وأيّ نظرية علمية لم تلق هذا المصير)؟، غير أن علماء العالم الكبار انضموا إلى جانب مؤيديها. فالعالم من

جامعة كامبريدج، الحاصل على جائزة نوبل بالفيزياء سنة 1973، براين جوزيفسون أطلق على نظرية بوم وبرايبرام تسمية «الخرق في مفهوم حقيقة الواقع». وقد توافق مع وجهة النظر هذه، الدكتور ديفيد بيت، عالم الفيزياء في الجامعة الملكية الكندية، ومؤلف كتاب «الجسر بين المادة والعقل»، مؤكداً أن «عمليات تفكيرنا متصلة مع عالم الفيزياء، بشكل أضيق بكثير مما يفترض الكثيرون».

في سنة 1979، فإن روبرت ج. جان، عميد مدرسة العلوم التقنية والتطبيقية في جامعة برينستون، أعلن برنامجاً لدراسة «دور الوعي في إظهار الحقيقة المادية». وبعد إجرائه آلاف التجارب، عمم جان ومساعدوه اكتشافاتهم، مظهرين أنه يمكن تأكيد كل الأسس: فالعقل يمكن أن يتأثر ويؤثر مباشرة في الواقع المادي. أما في العام 1994، فقد اجتمع العلماء الكبار - ومدرسو العالم، في جامعة برينستون لكي يناقشوا كيفية تطوير هذه النظرية المذهلة واستخدامها عملياً في نواح محددة من العلوم.

فهذه الاكتشافات غير عادية حقيقة، لذلك فإن محاولات استعمال نتائجها في التطبيق العملي متصل بالتأكيد مع اهتزازات وشكوك كثيرة العدد.

والتأثير المتبادل للوعي مع العالم المادي لا يمكن تصوره اليوم كشيء ما خيالي: الوعي - هو طاقة في شكلها الأدق والأكثر دينامية: وهذا يساعد على الفهم، لماذا تخيلاتنا، أساليب تفكيرنا، أمنياتنا ومخاوفنا تُبدي تأثيراً في الأحداث الحقيقية، وتفسر كيف يتجسم الشكل الذي يكونه العقل.

اكتشافات مشابهة، متعلقة بجوهر الواقع، يمكنها أن تصبح قوة مؤثرة من أجل نمونا وكمالنا المستقبلي.

مدركاً أنه يعتبر جزءاً من الكون الديناميكي المفتوح، وأن عقله يؤدي دوراً رئيساً في خلق الواقع، فإن الإنسان يستطيع أن يخلق طرائق للاقتراب من الحياة أكثر فعالية وإبداعاً. والآن لا يجب عليه الوقوف على جانب الطرق، مراقباً ما يجري من ناحية، - فالاكتشافات الجديدة تسمح بفهم أنه، في العادة، لم يكن ولا في أي وقت مثل ذلك، فكله مؤسس على التأثير المتبادل، لأننا وأينما ذهبنا ومهما فعلنا، فأفكارنا هي التي تخلق الواقع المحيط.

قال اينشتاين بطريقة ما: «اكتشاف نظرية جديدة يشبه الصعود إلى الجبل، عندما تكتشف، وبنظرة، بانوراما جديدة وأكثر اتساعاً». وهذا ما يحدث معك بالضبط، عندما تقرأ هذا الكتاب. فسيكون «صعودك» التفكيري مُكافأً سريعاً جداً، عندما تكتشف إمكاناتك الطبيعية.